عاصفة فى قلب (*)

الأديب يوسف يعقوب حداد

الحب ، والأمومة ، اتفقا على الصراع فى قلب زوجة ... فلمن يراها عاطفة ؟!

كنت قرب النافذة أتلهى بشغل الأبرة ، واستروح آخر نسمات الربيع ، وألقى على الطريق نظرات متباعدة لعل أرى طفل وهما فى طريقهما من المدرسة إلى البيت . وفى آخر نظرة لم تقع عيناى على وجهى طفلى ، وإنما رأيت زوجى يجتاز آخر مرحلة من الطريق إلى البيت ، فألقيت على الساعة نظرة وجلة ، فإذا زوجى قد عاد اليوم مبكر بنصف ساعة على غير عادته !

واستولى على القلق ، فألقيت ما فى يدى ، وأسرعت إليه خافقة القلب ، وسألته — ما بك يا عزيزى ؟

فأجابنى بصوته الهادئ النبرات — لا شىء .

ولكنه كان يخفى عنى الحقيقة ، فقد كان وجهه شديد التجهم والانقباض . وحين دلفنا إلى داخل المنزل ، جلس « جان » على حافة المقعد ، وقال :

— الحقيقة أننى استلمت رسالة اليوم ، أثارت اهتمامى . هى من ابن عمى « دك برنت » ولعلك تتذكرين مقابلتك له فى الشمال ، يوم كنا نقضى شهر العسل .

فأمنت على قوله — نعم — أتذكره جيداً ، وقد استلطفته كثيراً . ثم قلت مازحة — كان يومئذ يجتاز أخطر أدوار الشباب وقد أولع بى فكان ولعه هذا مصدر سخريتنا منه . لعله اليوم فى الرابعة والعشرين — أليس كذلك ؟ !

ولكنه لم يهتم بحديثى ، ومضى يقول — استطاع الحصول على عمل فى المطار المجاور لنا ، وأنه يتساءل فيما إذا كنا نقبله عندنا ريثما يجد له مكاناً آخر .

وبدا عليه أنه يسألنى رأيى ، فقلت له — لم لا ؟ . لدينا غرف كثيرة ، يستطيع أن يشغل إحداها — ثم أننا هنا نشكو الوحدة ، فلا قريب ولا صديق يزورنا ويزوره فيخفف عنا « دك » هذه الوحدة — والأطفال ؟.. تصور وقع الخبر عليهم .

* * *

وسرعان ما أولع الطفلان بدك ، وسرعان ما انسجم دك معهما — وكثيراً ما كانوا يتحدثون عن الطيران ، حتى أصبح كل من فى المنزل خبيراً بأموره وما يتعلق به ! . ولكن ولع دك بالطفلين لم يكن أكثر من اهتمامه بى !

ومرت الأيام ، فإذا زوجى يتغير . لم يعد يدير دفة الحديث كما كان يفعل من قبل ، وبدأ ينفرد بنفسه كثيراً — وازداد اهتمامه بالصيد وكان الصيد هوايته المفضلة . وكنا ذات مساء نجلس حول مائدة العشاء ، فبدأ الطفلان سلسلة أسئلتهم الساذجة .

قال جاك — كيف كان طيرانك اليوم يا دك ؟

— لا بأس به يا عزيزى .

وقال « بل » محدثاً شقيقه — ألم تر مناورته اليوم فوق بناية المطار ؟

فتحدث جان زوجى من بعيد ، وقال ليل وفى حديثه الشئ الكثير من التعب والهموم : إذن فقد ذهبت اليوم إلى المطار وقد وعدتنى بالأمس ألا تذهب !.. أنسيت أننا اتفقنا على تنسيق طوابع البريد معاً ؟ فهتف الطفل فى أسف قائلا — والله — لقد نسيت — معذرة يا أبى .

ثم عاد إلى دك يحدثه من الطيران ، فاستطعت أن أرى نظرات الحقد والغضب فى عينى زوجى جان !

وصعد جان إلى غرفته لينام ، وجلسنا أنا ودك والطفلان نصنع نموذجاً لطائرة دك من الكارتون ، ومضى الوقت ونحن لاهون ، وشعرت وقتئذ بسعادة الشباب تعود إلى تخدير حواسى مرة أخرى ...

دك الشاب المرح — وهذا العمل الصبيانى — أعادا إلى ذكريات الشباب .

وسمعت زوجى يقول وهو واقف على باب مخدعه فى الطابق

(*) مترجمة عن مجلة « نورستورى »

الثانى — لقد حان موعد نوم الأطفال ... الساعة الآن النصف بعد العاشرة !

ثم عاد إلى فراشه . وصعد الطفلان إلى فراشيهما ، وبقينا أنا ودك الذى قال لى ضاحكا — ألم يحن موعد نومك أنت الآخرى ؟

فضحكت ، وأدرت عينى إلى النافذة ، فإذا أنا أرى القمر الساطع بتوسط كبد السماء ، فخيل إلى أن القمر بشار كى سعادتى!

قال دك — ألم تجربى الطيران فى ليلة مقمرة ؟

— إنها خسارة — أليس كذلك ؟

— عندى طائرة جاهزة فى أى وقت .

شكراً — إنى متعبة الآن .

لا شك أن دك كان يدعونى لنزهة ليلية — ولكنه لم يجسر على توضيح رغبته — ولكننى فهمتها — مسكين دك !

وصعدت درجات السلم متخاذلة ، وفتحت باب مخدع زوجى فإذا هو غارق فى نومه . فاقتربت منه أمشى على رؤوس أصابعى ، وانحنيت عليه أقبله ، ولست أدرى لماذا جاءتنى تلك الفكرة . فكرة المقارنة بين وجهه الذى دبت فيه معالم الكبر ، ووجه دك الريان بالشباب !

وسرت إلى النافذة حزينة متألمة ، فطالعنى القمر بوجهه الضاحك — فإذا أنا أعود إلى دك — وما هى إلا لحظات ، حتى كنا نشق طريقنا مسرعين إلى أرض المطار .

قلت لنفسى وأنا أسبح فى الجو إلى جانب دك — يالها من سعادة ! وتمنيت لو أن هذه النزهة الجوية لا تنتهى أبداً .

— أأعجبتك هذه النزهة ؟

— بل أحببتها كل الحب .

— وأنا ؟

فى هذا السؤال كان بل جاداً كل الجد ، وخيل إلى أن الحب يصرخ فى عينى : دك — أوه ! دك .. لا تكن .

ولكنه لم يمهلنى ، وعاجلنى بذرامين قويتين ، وشفاه ملتهبة .

— أحبك يا روث — أتذكرين أول مرة قابلتك فيها ... وكنت تقضين شهر العسل !.. منذ ذاك اليوم أحببتك ، ولكنى لم أجد فرصة لأعرب لك عن حبى .

* * *

كان زوجى شديد الولع بطفليه — لم يكن يعاملهما كما يعامل الأب أولاده ، وإنما كان يعاملهما كما يعامل الصديق صديقه . لا يكاد يدخل البيت حتى يأخذ طفليه ليشغل كل وقته معهما . واعتاد الطفلان هذه الحياة ، حتى أنهما كانا يدعوان والدهما باسمه المجرد ، حتى خلا البيت كلة من « بابا » أو « ماما » ، وكنت أنتقد هذه الطريقة فى تربيته لولديه . ولكن رأيه لم يكن ليتأثر برأيى أنا .

وذات يوم أخذ زوجى يعد معدات السفر مع طفليه ... مع طفليه فقط !.. وتوسلت إليه أن يأخذنى معهما ، ولكنه أبى على هذه الرغبة . — جان — خذنى معك . ستحتاج لمن يطبخ طعامكم ، ويغسل ملابسكم — جان ، ربما تمرض الطفلان ، فماذا تفعل وحدك ؟

ولكن السيارة ابتعدت بهم عن عينى ، فوقفت وراء النافذة أسكب دموعى فى حرقة ولوعة .

وسمعت دك يقول لى فى تأثر شديد لماذا تحاربين حبنا يا روث ؟ إن الحب لأسمى من هذه القيود البغيضة التى تقيد عاطفتك بالأغلال

وأمطرنى بسيل مدهر من قبلاته .

وكتبت لجان رسالة طويلة أطلب حريتى ... وانتقلت مع دك إلى منزل صغير أحلناه إلى جنة صغيرة . ولكن حبى لدك لم يكن كل شىء بالنسبة لسعادتى ... حب دك لم يستطع أن ينسينى طفلى ، فأنا فى منتصف الليل استيقظ من نومى ، فإذا وسادتى مبللة بدموعى ... كنت أحلم بهما .

وأقف أمام المرآة فأرى جمالى يتوارى الذبول ... إننى أكبر من دك بعشرة أعوام ، ومعنى هذا أننى أسبقه إلى الشيخوخة بعشرة أعوام ... وفى هذه المدة من يدرى ماذا سيكون ... وربما انصرف دك عنى إلى حب امرأة أصغر منى وأجمل !.. وربما هذا لن يكون . وربما كبر طفلاى فيدركان معنى الأمومة ، فيعودان إلى — من يدرى ماذا يخبىء لى المستقبل . على كل حال ، فإننى أتمنى لو أننى أستطيع إعادة عقارب الساعة إلى تلك الأيام التى سبقت دخول دك منزلنا الهادىء لأول مرة .

(البصرة . عراق) يوسف يعقوب عمار